

الأضحية والقرايين

عند مختلف الأمم وفي شتى الشرائع

بقلم الدكتور على عبد الواحد وافي

مدرس العلم الاجتماعية بكلية الآداب

يدلنا البحث في نشأة الأديان وتاريخها على أن فكرة التقرب للعبودات بتقديم الأضاحي والقرايين ، واتخاذها براقا تصمد عليه رغبات عالم الأرض ومخاوفه الى عالم السماء ، والتوسل بها لحرما تبغيه الأفراد والمجتمعات من منافع ، ودفع ما يهددهما من أضرار ، كل أمر لك قد نشأ مع الانسانية ، وظل ملازما للتفكير الديني في مختلف مراحلها ، وسيظل باقيا ما دامت العقائد والعبادات . فلم يخل من هذه الشعيرة دين من الأديان ، ولم تمر منها حياة شعب من الشعوب . جاءت بعبادات الطوطميين والمجوس والوثنيين والعباشة والمسانوية وعبدة الكواكب والحیوان ، كما جاءت بشرائع الموحدين من اليهود والمسلمين . نثر عليها في أبسط مظاهر الدين وأكثرها اضطرابا ، كما نصادفها في أرق أشكاله وأشدّها دقة وإحكاما . ولا أدل على قدمها وعموم انتشارها من الكلام عنها بجميم أسفار " العهد القديم " ومن أن القرآن الكريم يحدّثنا عن شكل من أشكالها جرى العمل به في عهد أبي البشر نفسه إذ يقول : " واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . . الآية " .

وقد جرّت هذه العبادة الدموية على بني الانسان كثيرا من المصائب والويلات . فكم أثكلت أمهات ، وأيتمت أطفالا وأيتم نساء ، وكم ذهبت في سبيلها أرواح بريئة طمعة للثيران وغذاء للسماك . وكم حامت الآباء على تقديم آبائهم قربانا لمذاييع اللادوت وإزهاق أرواحهم بأيديهم . وكم دعتهم الى وأد بناتهم وإغراقهن ابتغاء مرضاة الآلهة . وكم دمرت من مدن وقضت على شعوب .

وذلك أن الضحايا في أقدم أشكالها وعند طائفة كبيرة من الأمم الممجيّة والمتحضرة كانت تقدم من بنى الإنسان على اختلاف في نوعها باختلاف الأمم والشرائع، وتبعاً للأحوال المحيطة بالتقدمة والأسباب الداعية إليها . فقد كانت أحياناً من الإناث، وكانت تارة من الأطفال، وتارة من الشبان والشيوخ . غير أنه يظهر من استقراء هذه الحالات عند مختلف الأمم وفي شتى مراحل التاريخ أن معظم الضحايا الإنسانية كانت تقدم من طائفتين : من الأطفال ذكورهم وإناثهم (ولا سيما أول من يولد منهم لأبويه) . ومن البنات الأبتكار . ويظهر كذلك أن معظم من كان يضحي به من غير هاتين الطائفتين كان يؤخذ من أسرى الحرب والأرقاء والمذنبين . غير أنه في أحوال غير قليلة كانت الضحايا تقدم من طبقات راقية من الشعب . فكثيراً ما قدمت أمم ملوكها أنفسهم قرباناً لمعبوداتها .

وإذا لاحظنا أن المناسبات التي كانت تقتضى التضحية كثيرة الحدوث والتكرار ، وأن الإحجام عن التضحية عند وجود ما يقتضيها كان - في نظر هذه الأديان - شيئاً إذا تنفطر منه السموات ، ويشير غضب الآلهة ، ويصيب نكاله جميع أفراد المجتمع الذى حدث فيه التقصير ، إذا لاحظنا هذا سهل علينا أن ندرك كيف كانت هذه العبادة ، في أقدم أشكالها ، عاملاً لإحرام ودمار ومصدر مصائب وويلات . وحسبنا دليلاً على ذلك أن قبائل "الأزتك" وحدها (وهم السكان الأصليون لبلاد المكسيك) كانت إلى عهد غير بعيد تقدم من الضحايا الإنسانية ما يبلغ عدده خمسين ألفاً كل عام .

غير أن ارتفاع التفكير الدينى ، وإصلاح ما علق به في مراحل الأولى من خطأ في فهم الآلهة وصفاتهم وما يتطلبه رضاهم ، ونزعة المجتمعات إلى تزويد معبوداتها عن القسوة والتشقى ومن الحاجة إلى ما يقدمه إليهم بنو الإنسان وجعلهم أغنياء عن العالمين ، واتساع نطاق العلوم وانتشار الشرائع السماوية والكتب المقدسة ... كل أولئك قد عمل على احترام الحياة الإنسانية ، ففضى على هذا الشكل الوحشى من التضحية وامتبدل به أشكالاً أخرى لا تنبؤ عن الخلق الصحيح ولا تتنافر مع مقتضيات العمران .

عندئذ ظهرت التضحية ببعض أنواع الحيوان كالبقرة والغنم والمعز ، وبعض أنواع الطيور كالديك والإوز والبط .

وظهرت أنواع أخرى من القربان لا تقتضى إهراقاً للدم كالقرب بما يستخرج من الحيوانات والقرب بالنباتات كالحنطة وسنابل القمح والدقيق الممزوج بالزيت ، والقرب بما يصنع من النبات كالخبز والفطير .

وقد كان لظهور الزراعة أثر كبير في هذا التطور . فقد هذبت الزراعة كثيرا من أخلاق الإنسان وطباعه . فبفضلها كثرت كميات غذائه النباتي وقل مقدار استهلاكه من اللحوم . فزالت وحشيته واعتدل مزاجه ، وهدأت طباعه ورقّت مشاعره . فاستبدل بكثير من تقاليده الدموية وعقائده الوحشية الأولى نظما أخرى أدنى إلى الإنسانية وأقرب إلى مقتضيات العمران . ولذلك أخذت القرابين الإنسانية والحيوانية تقل شيئا فشيئا بعد ظهور الزراعة ، وتحل محلها القرابين النباتية المؤلفة من سنابل الغلال والخبز والفطائر وما إلى ذلك . فأصاب غذاء الآلهة وطباعها من أسباب التهذيب والرقى ما أصاب غذاء الأناسي وطباعهم ! .

وظهر كذلك نوع غريب من التضحية وهو التضحية الصورية كالتضحية بالنماثيل والصور الإنسانية (وقد انتشرت هذه العادة عند كثير من الأمم القديمة والحديثة) ، وكل هراق الدم من عضو من أعضاء التضحية دون القضاء على حياتها (وقد اتبع هذا النظام في كثير من معابد قدماء الإغريق وبخاصة معبد الإلهة أرتميس) ، وكالاكتفاء بأعمال تمثيلية تشير إلى ما كان يعمل قديما : فعند بعض قبائل الهنود الحمر مثلا كان يكفي في التضحية عقب وفاة الزوج ، بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل النار فيها ، ويؤتى بزوجة المتوفى وتمتد على هذه الكومة وتظل كذلك حتى يقرب اللهب منها . وكالتضحية بنخال الإنسان : فبعض شعوب البلغار ، عند ما يشرع الواحد منهم في بناء جديد ، يترقب أول ما زيجوار البناء فيقيس ظله بنحيط ويضع هذا الخيط تحت أول حجر يوضع في العمارة ، ويعتبر هذا تضحية . ويزيد لديه هذا الاعتبار قوة أنه يعتقد أن صاحب هذا الظل لا بد أن يموت عما قليل . وهذا هو أغرب أنواع التضحية ، ولا يختلف في دلالته عن النوع السابق : فكلاهما تمثيل لتضحية إنسانية كانت متبعة قديما .

وقد اختلفت الضحايا والقرابين فيما يتعلق بأساليب تقديمها ، كما اختلفت فيما يتعلق بنوعها . غير أن أشهر هذه الأساليب وأكثرها انتشارا في الأمم هو تقديم التضحية إلى الآلهة بإلقائها جميعا أو بعض أجزائها في النار وانتشار الدخان المنبعث من حرقها في أرجاء المذابح والحياكل المقدسة وتصاعد رائحتها " التي تعجب الآلهة " (كما تقول التوراة) في طبقات الفضاء . وهذه الطريقة وحدها هي التي أقرها " العهد القديم " في جل أنواع القرابين ، حتى في قرابين النبات وما يصنع منه كالدهن والفطائر ، كما تنص على ذلك الإصحاحات الأول والثاني والسادس والسابع وغيرها من سفر اللاويين الذي جاء معظم آياته وقفا على بيان أنواع الضحايا وأحكامها وأوقاتها وكيفية تقديمها . ولا غرابة في ذلك ، فإن هذا السفر قد جاء ليبيان وظائف اللاويين (أفراد قبيلة من قبائل بني إسرائيل ، وتآلف من

أولاد لاوى أحد أبناء يعقوب) وتفصيل حقوقهم وواجباتهم نحو بقية قبائل اليهود . وأهم الوظائف التى نيطت بهم كانت تتمثل بالإشراف على المذابح وأعمال التضحية وتقبل القربان وتقديمها .

ومن طرق التقديم كذلك طريقة الاكتفاء بالذبح وإهراق الدماء . وهى الطريقة التى أقراها الإسلام فى الأضحية والهدى وذبائح التكفير لإغفال نسك من مناسك الحج أو عدم التمكن من القيام به لعذر أو إحصار ونحو ذلك .

ومنها طريقة الواد ، وهى دفن الضحية حية . وقد اتبعت هذه الطريقة عند شعوب كثيرة منها بعض قبائل العرب فى الجاهلية . فإن وأد البنات الذى انتشر بين قبائل طيء وتميم وربيعه وكندة لم يكن فى الحقيقة إلا شكلا من أشكال التضحية لأسمائهم ومعبوداتهم ، كما حققت ذلك فى مقال لى بالفرنسية نشر بمجلة L'Egyptienne (انظر عدد يولييه سنة ١٩٣٢ صفحة ٢٥ وتوابها) .

ومنها كذلك طريقة إغراق الضحية فى الأنهار المقدسة (كما جرت العادة عند قدماء المصريين) وطريقة خنقها ، وطريقة سذفها بالطين ، وطرق تعذيبها بمختلف الوسائل ، وطريقة إلقائها من شاذق ، وطريقة اتحارها عن اختيار منها بترديها من قمة عالية... وهلم جرا .

”

أما المتقرب إليهم ، فباستقرار هذه العبادة عند مختلف الأمم وفى شتى الشرائع يظهر أنهم لا يكادون يتجاوزون الطوائف الآتية :

(١) الآلهة على اختلاف أنواعها مع تفاوت بينها فى مقدار الحرص على هذه العبادة . وأشدها رغبة فى القرابين النار عند المجوس والكواكب والأنهار عند عابديها .

(٢) القديسون والأولياء . وقد انتشر التقرب إليهم بالقرابين عند أمم كثيرة . ولا يزال العامة ببلاد الصعيد وغيرها من بلاد القطر المصرى يئذنون الضحايا ويقدمون الذبائح لمختلف الأولياء ، ولا سيما السيد أحمد البدوى الذى تنذرله بالقرى المتسرية عجول تسمى عجول السيد تربى بعناية بالغة وينزلها الفلاحون منزلة تقرب من منزلة القديس ويحجون بها إلى طنطا عند اقتراب مولد السيد البدوى ليذبحوها أمام ضريحه . وغنى عن البيان أن أعمالا كهذه لا تقرها شريعتنا الغراء .

(٣) أرواح الموتى . وقد انتشرت عادة التقرب للوتى بالضحايا ابتغاء مرضاتهم وخشية غضبهم على الأحياء عند طائفة كبيرة من الأمم الانسانية قديما وحديثا ، وبخاصة قدماء المصريين . ومن الغريب أن آثار هذه العادة ظلت باقية إلى عصرنا الحاضر . فكثير من المصريين عوامهم وخواصهم في عصرنا الحاضر يرى من الضروري أن تذبح ضحية أو ضحايا من العجول أو الخراف أو كلبها تحت نعل الميت عقب خروجه من منزله إلى حيث يوارى التراب . ومن الواضح أن هذا أثر من آثار الشرك يتعارض كل التعارض مع مبادئ ديننا الحنيف .

(٤) الملوك والزعماء السياسيون والدينيون . وقد سادت عادة التقرب إليهم بالضحايا والقرايين في بعض الشعوب الممجيبة على الأخص .

هذا وقد كان يعتقد قديما أن المتقرب إليهم يستفيدون ماديا من الضحايا والقرايين . فقد ساد الاعتقاد عند بعض الأمم أن الآلهة تنفع في غذائها بلحوم الأضاحى أو بلحوم بعض أعضائها . ولذلك يحرم عند هذه الأمم أكل الناس منها جميعها أو بعضها . واعتقد بعض الشعوب التي كانت تقدم الضحايا الانسانية قربانا للآلهة والموتى أن المتقرب إليهم يتخذون من هذه الضحايا عبيدا وخداما يسخرونهم في قضاء حاجاتهم . ووصمت بعض الأمم أهلتها بصفات القسوة وحب الدماء والتلذذ بمنظر إزهاق الأرواح . فكانوا يقدمون إليها الضحايا تهديفة لهذه الميول الدموية ، وإتقاء لشرها وتأمينا على حياة الجماعات .

وقد قضت ديانات التوحيد على كل هذه الأساطير ، وجعلت التضحية مجرد مظهر من مظاهر تقوى الله وشكره وامتنال أو امره ، والإحسان للفقراء ، والبر بالمساكين . وإلى هذا يشير قوله عز وجل ” فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير “ وقوله أيضا ” لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم “ ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين “ .

على عبد الواحد وفى